مدينة مازونـــة
مجـــد وفخـــر

أ. عبد القادر بوطيبة*

مازونة، مدينة صغيرة سبقت إلى المجد مدنا كثيرة أكبر منها حجمًا وسكانًا. لعبت مدرستها الفقهية ذات الشهرة المغاربية وعلى مدى أربعة قرون تقريبًا دورًا رئيسيًا في المحافظة على عقيدة الأمّة وهويتها خاصة وأنّ حواضر إسلامية أخرى أصيبت بالوهن والتلاشي في ذلك العهد وخرجت فيه فلول التنصير تستهدف الإسلام في مواطنه ومواقعه وحضارته.

تخرّج من مدرسة مازونة علماء أفذاذ وشارك شيوخها وطلابها في معارك ضدّ الهجوم الصليبي على الثغور الجزائرية إلى أن تحرّرت وهران. وضعها الاحتلال الفرنسي نصب عينيه إلى أن قضى على هذا الدور المتميز وأحالها إلى أثر بعد عين كأي اسم له أهمية في حياة الناس. اختلف المؤرخون في أصل ومعنى كلمة مازونة، فهناك مَن نسبها إلى عين ماء ارتبطت بإحدى بنات الملوك تسمّى زونا. حكايتها أن ملكًا حطّ رحاله ذات مرّة في هذه البقعة رفقة الأميرة وطلب من رجاله إحضار الماء لها، فلمّا وجدوا المنبع منعوه على الغير وقالوا: هذا ماء زونة. فأدغمت الهمزة فيما بعدها، وصارت "مازونة". وهناك مَن يعتبر أن الكلمة تعني أرض الرجال الأقوياء وينسب آخر هذا الاسم إلى حكاية أخرى مفادها أن المنطقة كانت تحت حكم ملكة لها كتر من النقود تسمّى موزونة ويرى محمد بن يوسف الزياني أن مازون هو جد قبيلة من زناتة.

---

* كاتب صحفي.

والخلاف بين المؤرخين نجده كذلك حول تاريخ تأسيسها فهناك مَن يرجع ذلك إلى العهد الروماني بدليل وجود آثار رومانية وهو أمر يشير إليه الرحالة الإسباني "مرمول" الذي زار المنطقة خلال القرن السادس عشر ويعزي المؤرخون المسلمون تأسيسها إلى وقت متأخر. مثل ابن خلدون الذي نسب بناءها إلى عبد الرحمن رئيس قبيلة مغراوة في القرن الثاني عشر في حين يعتقد أبو راس أن تاريخها يعود إلى سنة 565 ويرى محمد بن يوسف الزياتي في كتابه "دليل الحيران" أن المدينة دمّرت عام 665 الشيء الذي يثبت وجودها قبل هذا التاريخ. قد زارها الإدريسي ووصف معالمها وأعجب بأسواقها وبساتينها ومساكنها وهيّأ موقع مازونة الذي يتوسّط جبال الظهرة، ويشرف على الطريق الرابط بين الشرق والغرب وهي الشروط الكافية لأن تلعب هذه المدينة دورًا سياسيًا وثقافيًا ذا أهمية كبيرة. فقد اختارها الرومان على الأرجح مركزًا لهم لوفرة مياهها وكثافة غاباتها ورنا إليها حكام المغرب وسلاطينه في مختلف عصورهم كالمرابطين وبني زيان ودايات الجزائر وباياتها الذين جعلوها أوّلاً بايلك للغرب قبل معسكر ووهران، ثم اتخذها الأمير عبد القادر واحدة من ركائز دولته، علاوة على أنها كانت منطلقًا لإحدى أشهر الإنتفاضات الشعبية التي تفجّرت في الظهرة ضدّ الإحتلال الفرنسي بزعامة الشريف بومعزة.

مدينة مازونة هي التي أنجبت واحدًا من مثل الشيخ محمد بن الشارف الذي أسّس مدرسة دينية سرعان ما صارت تنافس كبريات عواصم المغرب العلمية وامتد إشعاعها خارج حدودها الجغرافية وتواصل عطاؤها العلمي مدة أربعة قرون كاملة أو نحو ذلك. عرفت عصرها الذهبي في عهد أبي طالب ابن مؤسّسها حيث كانت له حلقة علمية متميزة درّس لطلبته مختصر خليل وشرح الخرشي وشرح الزرقاني وتخرّج على يديه شيوخ مشهورون منهم الشيخ أبوراس الناصري، ومحمد بن علي السنوسي وعدة بن غلام الله ومحمد الميسوم وأحمد بن الشارف بن تكوك وعديدون غيرهم.

لقد تخرّج من مدرسة مازونة علماء أفذاذ، طبّقت شهرة بعضهم الآفاق من أمثال العالم محمد بوراس دفين معسكر الذي انتقل إلى مصر وتونس وفاس وأخذ العلم عن كثيرين وألّف في مجالات علمية متنوعة والشيخ محمد بن أحمد بن قاسم العقباني الذي تولّى القضاء في تلمسان وله كتاب في الحسبة اسمه "تحفة الناظر وغنية الذاكر" والعلامة عبد الرحمن الثعالبي ذو الشهرة الغزيرة وصاحب المؤلفات الغزيرة والشيخ أبو زكريا المازوني مؤلف كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" وأبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الله الزواوي مؤلف منظومة "كفاية المريد" التي شرحها الإمام السنوسي والشيخ محمد بن يوسف السنوسي الذي يُعد أحد أكبر علماء عصره وأشهرهم. لقيت مؤلفاته الكثيرة في العقائد إقبالا كبيرًا ومنها عقيدة التوحيد الكبرى والعقيدة الوسطى والعقيدة الصغرى مع شروحها وتفسير سورة "ص" وشرح صحيح البخاري وأبو العباس بن زكريا التلمساني الذي برز في علوم شتى وأخذ عنه أحمد زروق الفاسي ومحمد بن مرزوق (حفيد الحفيد) وأحمد بن الحاج اليبدي وله عدة مؤلفات منها "بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب" و"غاية المرام في شرح مقدمة الإمام". وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى المعروف بشدّة دفاعه عن الإسلام وصاحب تفسير سورة "الفاتحة"، و"البدر المنير في علوم التفسير" و"تنبيه الغافلين عن المنكر". وقد زار المدرسة ووفد إليها عدد من كبار العلماء من أمثال الشيخ محمد بن عبد المؤمن المعروف باسم مصطفى الرمامي ومحمد بن علي السنوسي المجاهري مؤسّس الزاوية السنوسية في ليبيا والشيخ المعروف باسم بوراس المعسكري والشيخ محمد بلقندوز المستغانمي وغيرهم.

ترسّخ نظامها التعليمي على مرّ الأيام وتخصّصت في الفقه المالكي إلى درجة أنّها صارت أشبه بمعهد متخصص بنظام ومفهوم هذا العصر؛

وإستمدت أسلوب تعليمها من مدارس عريقة كتلمسان والأندلس والمغرب. قصدها طلبة من مختلف أنحاء البلاد من جبال الظهرة والونشريس وندرومة ومعسكر والمدية والبليدة وتيارت وحتى من بلاد القبائل نحو المأتين. قال عنها أبوراس الناصرى: "ولّما ذكر لي طلبة مازونة وكثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة أشياخها سافرت إليها" وأضاف: "ثم انصرفت عن مازونة بعد ثلاث سنوات وقدمت إلى أم عسكر ما معي شيء من مال ولا غيره سوى معرفة الفقه وحده".

وهكذا أمدت مدرسة مازونة الفقهية مدن الغرب بالأئمة والوعاظ سنوات طويلة واعتمدت نظام "الرتبة" أساسًا لمعيشة طلابها الغرباء حيث كان سكانها هم الذين ينفقون على طلبة العلم مثلما كانت عادة الجزائريين في مختلف المناطق.

كان طلب العلم في مازونة كعهد الإسلام دائمًا مقرونًا بالجهاد في سبيل الله، والذود عن حياض الدِّين والعرض والوطن وشارك شيوخها وطلبتها أكثر من مرّة في محاربة الإسبان وتحرير وهران حيث جاهد الشيخ أبو طالب وهو ابن الثمانين من العمر ضدّ الغزو الصليبي الإسباني وروى أحمد بن سحنون الراشدي جهاد ذلك العالم فقال: "... ثم بعث الأمير (يقصد الباي) إلى ولي الأمّة الشهير وشمس علمائها الذي نادى بفضله على منار المجد وكان مطاعًا عند طلبته، مهابًا بينهم، ما أمر بشيء إلاّ امتثلوه ولا نهى عن غيره إلاّ تجنّبوه، فقدم عليه هو وولده شيخنا السيد هني رحمه الله في نحو المأئتي طالب، فدفع لهم العدة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم".

وضمّه الباي محمد الكبير إلى قيادة الرباط وجعله أميرًا على الطلبة. واندفع مشيًا على الأقدام نحو وهران لملاقاة الإسبان الغزاة كما شارك ثانية في معركة أخرى ضدهم، لكنه هذه المرّة، فقد فيها ابنه أثناء مواجهة جرت في مسرغين. وتقديرًا لمدرسة مازونة، وجهاد شيوخها وطلبتها، قامت الدولة الجزائرية آنذاك بتجديد بناء المدرسة الفقهية، الشيء الذي مكّنها من مواصلة دورها وأداء رسالتها وإشاعة العلم على مدى قرون ويوجد إلى اليوم كتر من كنوزها عبارة عن نسخة نادرة من صحيح مسلم أوقفها الباي محمد بن عثمان الكبير سنة 1202هـ أيام كان الشيخ أبو طالب بن علي أستاذًا فيها وهي الآن محفوظة ضمن مكتبتها التي تحتوي على عشرات المخطوطات التي تتداولها طلبتها أثناء مجد هذه المدرسة التي خبا دورها تدريجيًا تحت قهر الاستعمار الفرنسي.